

ثلاثية نجيب محفوظ

للدكتور ماهر حسن فهمي

المدرس بقسم اللغة العربية

جوهـر ثلاثية نجيب محفوظ يتركـز في حياة أسرة من الطبقة الوسطى، تنبـعها في ثلاثة أجيال متعاقبة . وقد كان في الواقع يصور مجتمعنا في ثلاث مراحل من حياته ، من خلال اختياره لهذا القطاع . وأصحاب الواقعية يشترطون أن تكون أحداث القصص من المستندات التاريخية^(١) . وفي الحقيقة ، لا فرق بين الواقعيين والطبيعيين إلا في المبدأ الذي تمسك به زولا في الانتهاء في القصص إلى نتائج أيدها العلم من قبل ،^(٢) خاصة علم الوراثة ، كما وضح في سلسلة قصص «زولا» الطبيعي عن أسرة «Rougon-Macquart»^(٣)

وقد عرض الدكتور لويس عوض في مقالين له لثلاثية نجيب محفوظ، وتتبع بعض مظاهر الوراثة في الشكل وفي الطبع ، تتبعاً دقيقاً رائعاً ، ينتهي به إلى قوله : «وهذا هو المقصود بالحمية العلمية في عرف أدباء المذهب الطبيعي ، أي حتمية الوراثة والبيئة . إن زواج عبد الجواد وهنية كزواج الأرانب أو فيران المعمل ، ما كان ليثمر غير ما أثمر ، ونتائج التجربة الفنية، لا يمكن أن تختلف عن نتائج التجربة العلمية»^(٤) .

(١) الروايات الواقعية في القرن التاسع عشر لمحمد فلاب ص ٨٠ .

(٢) الأدب المقارن لفنيمي هلال ص ٣٩٤ .

(٣) راجع :

L'Epoque Réaliste et Naturaliste Par R. Dumesnil, P. 433

(٤) صفحة الأدب بالأهرام ١٩٦٢/٤/٢٧ .

كل هذا حق ، وهو يؤيد تأثير نجيب محفوظ بالمذهب الطبيعي في القصة ، ولكن تنمة هذا الحق هو تأثير نجيب محفوظ بالمذهب الواقعي أيضاً تأثيراً واضحاً كبيراً ، على عكس ما انتهى إليه الناقد لويس عوض في إحدى مقالاته حين قال :

« وعندي أيضاً أن أكثر أشخاص (بين القصرين) و (قصر الشوق) و (السكرية) ليسوا بمجرد أشخاص عاديين سواء في طبقتهم أو في المحيط البشري الكبير ، فهم إذن ليسوا نتاجاً من نتاج الفن الواقعي » .

ولكن يبدو أن نجيب محفوظ قد تنبه إلى أن اعتماده على المذهب الطبيعي وحده سوف يوقعه في مبدأ الجبرية الذي يؤخذ على أصحاب هذا المذهب ، بحيث يصبح الفرد آلة يحركها علم الوراثة ، ولا سبيل إلى أن يغير من واقعه الموروث . ومن هنا أخذ يزواج بين المذهب الطبيعي والمذهب الواقعي في ثلاثيته .

وبطل قصة « بين القصرين » هو السيد أحمد عبد الجواد ، وهو شخصية مهابة في بيته نسمة يقول لزوجته : « أنا رجل ، الأمر الناهي ، لا أقبل على سلوكي أية ملاحظة وما عليك إلا الطاعة ، فإذرى أن تدفعيني إلى تأديبك » . بين القصرين ص ٩ .

وجلسه مع أبنائه على قصرها شديدة الوطأة عليهم بما فيها من تزمت وصرامة من جانبهم ، ووقار ورهبة من جانبهم . فهل كان هذا الرجل - الذي عاش أول هذا القرن - شاذاً بين الرجال في وقته ؟ كلا بل هو صورة صادقة حية بما فيها من دقة شديدة ، لرجل أول القرن في مجتمعهنا . وإذا أردنا نصاً يثبت ذلك وجدناه عند « أحمد أمين » ، في مقالته « سلطة الآباء » ، حين يقول : « رحم الله زماناً كان الأب فيه الأمر الناهي ، والحاكم المطلق ، والملك غير المتوج ، ينادى فيتسابق من في البيت إلى ندائه ، ويشير بإشارته

أمر ، وطاعته غم ، تحدته الزوجة في خفر وحياء ، ويحدته الابن في إكبار وإجلال ، من سوء الأدب أن يرفع إليه بصره أو يرد عليه قوله أو يراجعه في رأى ، أو يجادله في أمر . أما البنت فإذا حدثها لف الحياء رأسها وغض الخجل طرفها ، قليلة الكلام متحفظة الضحك ، خافضة الصوت . تنوهم أنها أخطأت في التافه من الأمر فيبندى جبينها ، ويصبغ الخجل وجهها ،^(١) .

ونستمر في قراءة « بين القصرين » ، فنجد « فهمى » الشاب يوسط أمه في أمر زواجه من « مريم » ، ونجد « عائشة » تضحي بمن تحب لأنها لا تجرؤ على أن تناقش أباهما في رأى وإن كان خاصا بزواجهما .

فإذا ما أعدنا النظر في مقالة « سلطة الآباء » ، سمعنا أحمد أمين يقول :
« وإذا جاء حديث الزواج والزواج فألى أمها الحديث لا إلى أبيها ، وبالتلويح والتلميح لا بالتصريح ، والأمر إلى الأب فيما يقبل وفيما يرفض وفيما يفعل وفيما لا يفعل ... فإن أحس الابن حاجة ملحة إلى مال ، أو شعر بضرورة ملحة إلى أكثر مما أخذ ، لم يجرؤ أن يجابه بالطلب ، إنما يحاور ويداور ويلج ويرمز ، فإن أعياه الأمر وسط الأم لعلها تستطيع أن تعبر تعبيراً أوضح وأصرح ، وقل أن تنجح »^(٢) .

ولم يكن السيد أحمد عبد الجواد في حياته كلها صارماً مترمناً ، ولكن حياته خارج البيت وعلى الأخص أمسياته . كانت دائماً مترعة باللذات ، تناقض أشد المناقضة حياته في منزله . « ولكنه كان يصدر في سلوكه عن طبيعته الخاصة بقلب طيب وسريرة نقية وإخلاص في كل ما يفعل ، فلم تعصف بصدرة عواصف الحيرة وبات قري العين . وكان إيمانه عميقاً ، أجل كان إيماناً موروثاً لا دخل للاجتهاد فيه ، بيد أن رقة مشاعره ولطافة

وجدانه وإخلاصه أضفت عليه إحساساً رهيفاً سامياً نأى به عن أن يكون تقليداً أعمى ، أو طقوساً مبعثها الرغبة أو الرهبة فحسب ، وبالجملة كان أبرز ما يتميز به إيمانه بالحب الخصب النقي . بهذا الإيمان الخصب النقي أقبل يؤدى فرائض الله جميعاً ، من صلاة وصيام وزكاة في حب ويسر وسرور ، إلى سريرة صافية وقلب عامر بحب الناس ونفس تسخو بالمروءة والنجدة ، جعلت منه صديقاً عزيزاً يستبق القوم إلى الرى من منله العذب ، وبتلك الحيوية الفياضة المشبوبة فتح صدره لمسررات الحياة ولذائدها ، بهش للما كل الفاخر ، ويطرب للشراب المعتق ، ويهيم بالوجه القسيم ، فينهل منها جميعاً في مرح وبهجة وولع ، غير مثقل الضمير بإحساس خطيئة أو وسواس قلق ، فهو يمارس حقاً منحة إياه الحياة ، وكأنما لا تعارض بين حق الحياة على قلبه وحق الله على ضميره ، فلم يشعر في ساعة من حياته بأنه بعيد عن الله أو عرضة لنقمته . أكان شخصين منفصلين في شخصية واحدة ؟ أم كان أعتقاده في السهاحة الإلهية بحيث لا يصدق أنها تحرم هاتيك المسرات حقاً ، وحتى في حالة تحرهما فهي حرية بأن تعفو عن المذنبين ما لم يؤذوا أحداً . بين القصيرين ص ٥١ .

والواقع أن أحمد عبد الجواد في هذا التناقض كان كذلك صورة صادقة لإنسان هذه الفترة في مجتمعنا . مجتمع إسلامى شرقى بدأت تغزوه حضارة أوربية ، فلا بد أن يتردد الناس بين الحضارتين المتصارعتين بالنسبة للفكر وبالنسبة للحياة الاجتماعية أيضاً . فإلى جانب المعاهد الدينية وجدت المدارس الأجنبية ، وإلى جانب الجرائد العربية وجدت الجرائد الأوربية . وأهم من كل ذلك وجد من المثقفين من يريدون النهضة على أساس تراثنا وتقاليدنا ومن يريدونها غربية خالصة . وإلى جانب المساجد المنتشرة انتشرت الخمارات حتى تغلظت إلى أعماق الريف كما يحدثنا عبد الله النديم في «الاستاذ» و «التنكيك والتبكيك» وفتحت دور البغاء المرخصة من الحكومة . وكان قصر الخديو يقيم الحفلات الراقصة كل عام واتخذت الحرية وسيلة

للافتكباب على اللذات . فبدأت الطبيعة الشرقية السمحة التي عاشت تستنشق دائماً عقب الدين ، بدأت تفتح نوافذها وتطل على دنيا اللذات فلا تملك زمام نفسها : يقول «لوثروب ستودارد» في كتابه «حاضر العالم الإسلامي» : «أما الشرق فهو في كثير من مواعيد الانقلاب يطفئ في تحوله ، إذ أن ما يأخذه عنا ويقتبسه منا دفعة واحدة قد تقضت على تكامله عندنا الأجيال والقرون ، فكانت النتيجة أن غلبت صفة الطفرة لا صفة النشوء المتري على تطور الشرق ، هذا التطور السياسي والاقتصادي والاجتماعي والديني وغير ذلك . فاختلطت الجواهر بالأعراض ، وتناقضت البواطن والظواهر ، وبدت أمور وشئون بعضها قبل أوانه ، وبعضها الآخر بعد أوانه ، وفي مدة قليلة طفقت شقة التباين العقلي والخلقي تمتد وتتسع بين أبناء الجيل الواحد . . وربما قام الفرد على نفسه فقالت سجيته وخلقه خلقه^(١) .

وهذا نفسه ما حدثنا عنه إبراهيم سلامه فيما أسماه «قانون المدينتين»^(٢) والسيد أحمد عبد الجواد صورة لذلك الجيل المتناقض ، الذي يتحمس بلسانه للديمقراطية ولا يطبقها في بيته ، ووطنه وطنية سلبية في أكثر الأحيان ، فهو قد قنع بالمشاركة الوجدانية دون الإقدام على عمل ما ، وقته خالص لحياته ، وللوطن عواطفه وماله كلها تبسر . فاللهو لا يغير ما بقلوب الرجال . وقد ثار سعد لإسعاد المصريين لا لتعذيبهم ، فلا خجل عند الحزن على نفيه من كأس تخفف الأحزان . بين القصرين ص ٤٠٣ .

هذه صورة واقعية للرجل العربي في مصر بداية هذا القرن ، بما في حياته من تناقض اجتماعي ، وبما في نفسه من تناقض إنساني . ولكن الجيل التالي كان أكثر تلاؤماً مع نفسه ، جيل «فهمي» الفتى النائر ، وجيل

(١) حاضر العالم الإسلامي ج ٢ ص ٥ .

(٢) تيارات أدبية بين الشرق والغرب ص ١٤٧/٢٣٧ .

« كمال » الفتى الباكي الحزين . جيل « فهمى » الذى قام بثورة ١٩١٩ فأحس بكيانه الذى أضاعه الاستعمار من قبل ، وجيل كمال الذى أحس بخيبة الأمل بعد أن فشلت الثورة فى تحقيق أهدافها الوطنية العامة ، بعد أن بذلت كل أسرة ما بذلته أسرة « السيد أحمد عبد الجواد » التى قدمت ولدها فهمى قرباناً على مذهب الثورة .

وما من شك فى أن « كمال » هو بطل هذا الجيل فى حياة الأسرة ، وهو أيضاً بطل هذا الجيل فى حياة شعبنا التى اصطبغت بصبغة رومانتيكية بعد ثورة ١٩١٩ ، فانخذ موقفاً سلبياً شعاره المرارة والانطواء ، انعكس على كل اتجاهاته ^(١) .

أليس كمال هو الذى يقول عن نفسه : « وقد مل حتى طفح بالملل ، فتى يدرك قطاره محطة الموت ؟ » السكرية ٢٠٥ .

« سعيد من لا يفكر فى الانتحار أو يتمنى الموت » قصر الشوق ٣٧١

أليس هو الذى استعذب الألم مثلما استعذبه كل الرومانتيكيين حين قال :
« شعور واحد يلتقى فيه الألم باللذة كالفجر تلتقى عنده حاشية الليل بأهداب النهار » السكرية ٢٧٢ .

وإذا حولنا بصرنا عن هذا الفتى الرومانتيكى وجدنا الشاعر عبد الرحمن شكرى الذى عاش فى هذه الفترة يعبر عن الآلام التى أحاطت به من كل جانب فلا مفر له منها ، ف يتحدث عن رياض من الآلام وعن أزهار من الندم ، وعن اللذة الحزينة التى يجدها قاطفها وجانيها فيقول :

كم جنينا من أزاهير الألم زهرة سوداء من زهر الندم

(١) تطور الشعر العربى الحديث فى مصر ص ١٨٨ .

زهرة سوداء من زهر النقم فهي طيف من ممات قد ألم
هذه الأزهار سود كالقضاء في رياض من شقاء وعناء
ليس لي منها مفر أو نجاء فهي حولى في صباح ومساء^(١)

وهو يودع أحلامه حتى دون أن يحاول شيئاً ، يودع كل أحلامه
المركزة في صاحبته التي هي رمز لتلك الآمال ، ويصطدم بواقع الحياة
فلا يزداد إلا مرارة وبكاء وإمعاناً في الانطواء والأحلام . (إن أبواب
الحياة تغلق في وجهه وقد نبذ خارج أسوارها . ثم رآهما يتحولان عن
موقفهما ويتجهان نحوه ، ومرا به في سلام . وأتبعهما عينيه وهم بالسير
في أثرهما ولكنه عدل عن ذلك فيما يشبه الضجر ، ولبت أمام معرض
اللعب ، ينظر ولا يرى شيئاً . ونظر صوبهما مرة أخرى كأنما ليلق عليها
نظرة الوداع ، وكانت تبتعد دون توقف ، تحتق تارة وراء المارة وتبدو
تارة ، ويرى منها جانب مرة ثم يرى جانب آخر ، وكان كل وتر من أوتار
قلبه يغمغم « وداعاً » . ونفذ إلى أعماقه شعور العذاب مصحوباً بأنغام
حزينة ليست بالجديدة ، فذكر بها حالاً مماثلة ماضية دبّت في أعماقه جارة
وراءها شتى ذكرياتهما المدغمة ، كأنها لحن غامض مثير لأجل الألم ، وهو
في الوقت نفسه لا يخلو من لذة خفية مهمة) السكرية ص ٢٧٢ .

ومن المهم أن نذكر أن « كمال » لم يتزوج ، وهو يحاول أن يبرر ذلك
للتصرف أمام نفسه بأنه حب للحرية المطلقة وهروب من الأسر ، ولكن
الواقع أنه هروب كامل من الحياة ، لحياته تنتهى وهو يلثم مولياً ظهره
لواقعها ، مخلفاً وراءه جيلاً جديداً كان رد فعل لهيام سابقه في الخيال ،
فهام هو بحثاً عن الحقيقة . وهكذا نسمع « إبراهيم شوكت ، يقول « لباسين » :

« فمحن نربي ونوجه ونصح ولكن كل ولد يندمج في مكتبته ، وهي عالم مستقل عنا يرحمنا فيه أناس غرباء لاندرى عنهم شيئاً ، فما عسى أن تصنع ؟ »
السكرية ص ٣٢ .

إنه جيل مثقف مضطرب ، ولعل من السخرية المرة أن يكون في الأسرة الواحدة الوفدى والإخوانى والشيوعى ، بل في البيت الواحد يكون هناك اجتماعان ، أحدهما للمتعصبين لسيطرة الدين على الحياة ، والآخر لمن لا يؤمنون بالدين نفسه . ولم يعد من الهين على الآباء أن يأمرُوا ويأجروا ذلك الجيل المتوثب المضطرب فيستسلم دون نقاش . فمن الطبيعى أن نجد « السيد أحمد عبد الجواد » يستنكر استجابة « إبراهيم شوكت » لرغبة ولده الطالب ويوجهه . ومن الحق أن السيد عبد الجواد نفسه قد بدأ أسلوب حياته مع أبنائه يتغير بعد الثورة ، فهو يترك لولده « كمال » أن يحدد مستقبله حين يختار مدرسة المعلمين العليا ، التى لم يرض هو عنها ، وهو لا يملك إلا أن يناقش « ياسين » مناقشة منطقية في أمر زواجه من « مريم » .

ومن الطريف حقاً أن نجد الفارق بين تفكير جيلين في مسألة تتعلق بعصب المجتمع ، « حين تقول نعيمة بحمرة : — وددت لو أتممت تعليمى ، كل البنات يتعلنن اليوم كالعصبيان . فتقول أم حنفى باحتقار : — يتعلنن لأنهن لا يجدن العريس » . السكرية ص ٩ .

جيل جديد فى كل شىء ، نجده أيضاً مصوراً فى « سلطة الآباء » حين نقرأ :

« وقال الآباء لأبيهم : إنا مخلوقون لزمان غير زمانك ، فانضع لحكم الزمان ، وقد نشأنا فى زمن حرية فى الآراء ، وحرية فى الأعمال ، وحرية فى التصرف ، لا كما نشأت فى جو من الطاعة والقيد والأسر والتقاليد »

فحال أن يسع ثوبك الضيق أبداننا ، وتقاليديك العتيقة البالية نفوسنا ، .

وإذا كان « السيد أحمد عبد الجواد » هو بطل الجيل الأول و « كمال » هو بطل الجيل الثاني ، فننطبع إلى أن نجد بطلا للجيل الثالث . جيل مليء بالشجاعة وقوة الإرادة والرغبة في العمل ، وكأنما قد أتى ليكون كفارة عن سلبية وجود جيل مضى .

وإذا كان الجيل الأول قد هام باحثاً عن شهواته في أكثر الأحيان ، وإذا كان الجيل الثاني قد هام في أحلامه ، فإن الجيل الثالث كان هائماً يبحث عن بطل يجمع قواه المفرقة ليخلق منه قوة حقيقية ، فقد بدأت الأمور تبشر بتغيير شامل في المجتمع .

« هذه الوجوه الكالحة البائسة هي الشعب . . . وهذا الرجل المنوط به خلاص الإنسانية ينبغي أن يعى موقفه التاريخي حتى ينهض . . . إن موقفاً إنسانياً واحداً هو الذي جمعنا على اختلاف مشاربنا في هذا المكان . السكينة ص ٣٠٩ .

وإذا عرفنا أن الطبيعيين يكرهون أن يختموا قصصهم بمغزى لها ، وأن الواقعيين الاشتراكيين يختمون أن يثبت الكاتب في تصويره للشر دواعي الأمل في التخلص منه ^(١) ، أدركنا عمق التيار الواقعي الذي ينساب في ثلاثة نجيب محفوظ من أولها إلى نهايتها .

(١) الأدب المقارن لثنيى هلال ص ٣٩٥/٣٩٧ .